الدم المقـــدس

للقصصى الشاب محمد أبو المعاطى أبو النجا

كان « صلاح » يستخفه الزهو أحيانا وهو يقطع الطريق من المدرسة إلى بيته ، فيقفز فى مرح طافر ، أو يضرب بقدمه حجرا صغيرا فى الطريق ، أو يصفر بصوته اللين الغض لحن أغنية سمعها من « الراديو » ...

والواقع أن « صلاح » لم يشعر بالزهو مثلما شعر به اليوم .. لقد كان يتحرق شوقا إلى مغادرة المدرسة منذ انتهاء الحصة الأولى ، أو بعبارة أدق منذ سجل الأستاذ فى كراسته بقلمه الأحمر تلك العبارة الخالدة « حسن جدا » ... ولكنه لم يتمكن من الخروج .. ذلك أن عمى « متولى » البواب لا يسمح لأى تلميذ بالخروج قبل انتهاء الحصة الأخيرة .. ولأن جسمه الغض اللين لا يساعده على تسلق سور المدرسة المرتفع ... فكان عليه أن ينتظر ساعات وساعات حتى يدق الجرس الأخير . ولكن ... ولكن جلبة تسمع فى فناء المدرسة ، وهتافات تخترق النوافذ المقفلة وتصل إلى أذنيه : يسقط الاستعمار الغاشم ! يسقط الإنجليز الخونة ... فيعرف بحكم العادة أنها مظاهرة . وبحكم العادة أيضا يقفز فوق القناطر نحو باب الفصل الذى ضاق إذ ذاك بالتلاميذ المتزاحمين حياله ... ثم يمضى فى الفناء تجاه باب المدرسة المفتوح ، ثم يلقى نظرة كالها تشف وشماتة إلى عمى « متولى » الذى لا يملك من أمر نفسه شيئا أيام المظاهرات .. ثم يخرج إلى الشارع لا يلوى على شئ .. وماله هو وهؤلاء الطلبة المتجمهرون إزاء النصب التذكارى بالمدرسة ؟ إنه لا يكاد يفهم الكثير مما يقوله الطلبة الكبار وهم يخطبون ، فهو لا يزال فى الثانية الابتدائية .. ثم ماذا يهمه من الإنجليز ما داموا لا يأخذون منه شيئا ولا يحولون بينه وبين رفقة من رفقائه ، ولا بين أمنية من أمانيه ؟

هو لا يفهم لماذا يهتف الطلبة بسقوطهم ما داموا لا يتعرضون لنا بالأذى ؟ إنه يراهم يقطعون طرقات المدينة أحيانا فى عرباتهم لا يكادون يتعرضون لأحد ! ومهما يكن من شئ فهذا كله لا يهمه من قريب أو بعيد حسبه أنه الآن فى الطريق إلى بيته .. وأنه ذاهب إلى أبيه .. وأنه سيقف أمامه مزهوا ويعرض عليه كراسته مشيرا فى اعتزاز إلى تلك العبارة الحمراء التى تدفع به إلى صفوف التلاميذ النجباء .. وإذ ذاك يجد أن من حقه أن يطالب أباه ببذلة جديدة ؛ فهذا « الشورت » الأصفر وذاك القميص « الكاكى » لا يصلحان مطلقا لطلبة الستة الثانية الابتدائية ، ثم هذه الريشة .. شد ما يسره أن يجد مكانها قلما من الأبنوس ، فهذا وحده هو الذى يلائم السترة الجديدة .. ثم هذه الحقيبة التى صنعتها أمه من القماش ليحمل فيها الكتب .. إنها تكاد تكون الوحيدة بين حقائب التلاميذ الجلدية الفاخرة !

يا له من يوم ذلك الذى يلبس فيه السترة الجديدة وقد ظهر من جيبها طرف القلم الأبنوس وهو يحمل فى يده الحقيبة الجلدية الفاخرة ويسير فى خطوات مدللة بين التلاميذ !

وأسرع فى خطواته حين رأى فى الطريق رجلا يشبه أباه إلى حد كبير حتى لقد ظنه إياه .. وحين اقترب منه أدرك أنه ليس أباه .. وتأكد من الفارق بين هذا الرجل وبين أبيه .. إن أباه يتميز بتلك الابتسامة الحنون المشرقة التى ترف على ثغره حين يرى وحيده « صلاح » ، وبتلك النظرة الحانية الرقيقة التى ترف إلى قلب صلاح أبهج المشاعر وأنضر الأحاسيس .. ! .

وشعر بسعادة خفية تتسرب إلى وجدانه حين تذكر أباه .. وراح فى شرود قد يستعرض بعض الصور فى كتاب الذكريات ..!

إنه يذكر أن أباه أخذه مرة إلى المصنع الذى يعمل به ، وأن

مدير المصنع استدعاه يومذاك إلى مكتبه ، وأنه اصطحبه إلى المكتب . وحين خرجا معا من مكتب المدير بادر صلاح أباه :

— أرأيت مكتب المدير يا أبي ؟ إنه جميل. أرأيت صورة الملك المعلقة على الحائط ؟. إنها كبيرة وأنيقة ...

ويذكر أن أباه رد على تساؤله في صوت حنون حالم ... أرجو أن أعيش حتى أتم تعليمك وأراك موظفا كبيرا تجلس إلى مكتب كبير ... ثم تابع وهو يربت على كتفه ... وفوق رأسك صورة الملك ! وهل في مقدوره أن ينسى تلك السهرات الجميلة في مقهى الدنيا الجديدة في أمسيات الجمع ... لقد كان أبوه يصطحبه في تلك الأمسيات ليسهر معه؛ وإذ ذاك يشتري له من أنواع الحلوى وطرائف اللعب ما يشيع في نفس صلاح النشطة والمسرة ... حقا إن أباه يحبه وأنه سوف يسر كثيرا حين يقرأ تلك العبارة الحمراء التي يحس صلاح كأنها تاج غير منظور يتألق على جبينه ... وأسرعت خطواته حين اقترب من البيت ... وقرر في نشوة خفية أن يقرأ لأمه تلك العبارة الحمراء إذا كان أبوه لم يحضر بعد ... لا شك أنها هي الأخرى تسر لذلك ... ولاشك أيضا أنها سوف تكون عونا له حين يطلب إلى أبيه ما يرغب من حاجات !

واستغرقه شعور سعيد جعله يسير في هدوء كأنه يحلم ... وأخيرا قدر له أن يستيقظ من حلمه ... حلمه الجميل الذي حلق في سمواته بجناحي أبويه ... كان ذلك حين تناهى إلى سمعه صوت صراخ وعويل ... وحين تنبه إلى أن هذا الصراخ والعويل إنما ينبعثان من داره ... وحين أدرك في هذه الأصوات الجازعة صوت أمه !

جمدت قدماه فلم يستطع أن يواصل السير ... وبهت مشاعره فلم يستطع أن يدرك ماذا حدث ، ولا أن يفهم ماذا هناك !!

كانت هناك جموع حاشدة من الناس تهرع نحو الدار، وكان بين تلك الجموع رجال الاسعاف والبوليس ، ومع ذلك فلم يستطع صلاح أن ينقل قدميه خطوة واحدة تجاه البيت ... كان يشعر بإعياء شديد يتسرب إلى حناياه وأوشكت جموع الناس المتزاحمة أن تلقي به إلى الأرض لولا أن يدا رفيقة تمتد إليه، ووجها رحيما يعطف عليه . . وبأخذ بيده من وسط الجموع المتدافعة ... ولم ينظر إلى صاحب الوجه الرحيم حتى عرف فيه عم (فهمي) زميل أبيه في المصنع وجليسه في المقهى ... لقد انتحى به مكانا خاليا وأنهى إليه في إشفاق بالغ أن أباه قد مات ... قتله الإنجليز برصاصهم حين كان يهتف مع العمال المتظاهرين ... ليسقط الاستعمار ... ليسقط إنجلترا ... وأنه كان معه حين لاقى ربه ... وأنه أوصاه عليه قبل أن يلفظ النفس الأخير.. وراح يؤكد له وهو يجفف دموعه بمنديله أنه سيكون له مكان أبيه !

أما (صلاح) الصغير فقد لفه الصمت في غلائل الوجوم، وانتابه ذهول غريب جعله لا يدرك الأشياء من حوله إلا بالقدر الذي أدركها به مجموم أمضه المرض وأنهكه الألم ، وقضى شهوراً طريح الفراش ... !!

وظل هذا الذهول الحاد الذي كان له بمثابه الخدر الذي يحقن به المريض قبل إجراء جراحة له . . . ظل هذا الذهول مهيمنا عليه ... إلى أن تراءى إلى مسمعه صوت مألوف لديه ... صوت زملائه الطلبة وقد توافدت جموعهم نحو بيت الشهيد المصري الأول وهم يهتفون بصوت رهيب « إلى الجنة يا روح الشهيد الطاهرة.. وإلى الجحيم يا أوباش الأرض وحثالة الأمم »

ألم تكن محموما يوما وأفقت من هذيان الحمى حين لامست أنامل الطبيب الباردة جبينك المحرور . . . كانت تلك هي حال صلاح حين أفاق من ذهوله الحاد وصوت زملائه الكبار يملأ كالزئير . . . ! وبدأ يشعر بالأشياء كما هي . . أدرك أن أباه قد مات ... وأنه كان يهتف آخر حين انطلقت رصاصة غادرة تحاول بصوتها البشع أن تسكت صوت أبيه الجميل ... !

وبدأ قلبه الصغير يستقبل المشاعر والأحاسيس ظاهرة واضحة لا يكتنفها الذهول والغموض . . . أجل كانت ظاهرة واضحة كأنها النار . وكانت لاذعة حارة كأنها الشوك . .

وبدأ جسمه الصغير يتلوى في قبضة المشاعر والأحاسيس ..!

... أوه ... إنه الآن يشعر شعورا مريرا بأن هؤلاء الإنجليز ... وحوش قذرة . . . أجل لأنهم قتلوا أباه في حين أن الوحوش الأخرى الكثيرة التي تملأ الحقول والصحارى والكهوف لم تحاول أن تقتله ! وبأنهم لصوص حقراء . . لأنهم سرقوا منه البذلة الجديدة والقلم الأبنوس والحقيبة الجلدية الفاخرة . . وسرقوا منه أيضا . . السهرات الجميلة في مقهى الدنيا الجديدة ، والأمل الحلو النضير الذي أنعشه أبوه في خياله . . الأمل الذي يرى فيه نفسه موظفا كبيرا يجلس إلى مكتب كبير

إن هؤلاء اللصوص لم يسرقوا منه كل ذلك فحسب ؛ بل سرقوا شيئا آخر . وهنا ارتجفت أنامله الصغيرة وارتعش جسده النحيل . . شيئا آخر لا يدري كيف يعيش بدونه . هو تلك الابتسامة الحنون المشرقة التي كانت ترف على ثغر أبيه حين يلقاه ، وتلك النظرة الحانية الرقيقة التي كانت تزف إلى قلبه أبهج المشاعر وأنضر الأحاسيس

أجل تلك الابتسامة وتلك النظرة التي ألفها منذ أن كان طفلا في المهد . . ألفها حتى اقترن شكلها الخاص وطابعها المتميز بكل ما يحسه من ألوان الغبطة والسعادة . . !

أجل تلك الابتسامة وتلك النظرة لا هذه البسمات ولا هاته النظرات التي يحاول عم « فهمي » أن يخرجه بها من أساه المرير . . !

وأحس « صلاح » مع تلك المشاعر كلها بشعور آخر ليس في مقدوره أن يتجاهله . . بل ليس في مقدور مشاعره الأخرى أن تطغى عليه . . شعور بالخجل من نفسه ومن أفكاره التي صحبته بعض الطريق عن الإنجليز

وأخيرا تختلط تلك المشاعر كلها وتندمج وتستحيل إلى شعور آخر . شعور بالحقد المدمر والغيظ الخانق والكراهية الطاغية لتلك الوحوش القذرة واللصوص الحقراء الذين يسمونهم الإنجليز !

هذا الحقد الذي برق في عينيه الصغيرتين حادا كأنه الشرر . . وتلك الكراهية التي أحالت ملامح وجهه الطفلة إلى غضون وشجون ! وتعمق من أعماقه لو يكبر فجأة . . يصير رجلا كهؤلاء الناس قوي الساعد مفتول العضل . . إذن لذهب من فوره وذبح الإنجليز واحدا واحدا كما تذبح الأرانب . . !

ومن جديد يضعف الجسد الصغير أمام المشاعر الثائرة الغائرة التي عصفت به فيمتزيه ذهول رهيب ، ويلفه الصمت في غلائل الوجوم !!

* * *

وفي صباح اليوم التالي بفناء المدرسة يتجمهر الطلبة لدى النصب التذكاري ليقرروا الخطوات العملية التي يجب أن يخطوها تجاه الجد المنشود ! وفجأة يشرق اللغط والضجيج في موجة الصمت التي اكتسحت فناء المدرسة حين فوجئ الطلبة بتلميذ صغير يقف حيث تعود خطباؤهم أن يقفوا . . وأرهف الطلبة آذانهم حين ارتفع صوت صلاح . وقد انبعث من عينيه ذلك البريق الحاد الذي يشبه الشرر ، وشاعت في وجهه تلك الكراهية الطاغية التي تحيل ملامحه الطفلة إلى غضون وشجون . . حين ارتفع صوته بهذه الكلمات . . — إخواني . . : إن الإنجليز الوحوش قتلوا أبي . . قتلوه بالرصاص . . وأنا أريد اليوم أن تأتوا معي لنقتلهم كلهم . . . كلهم . . . وشرقت نبراته بالدموع ولم يعد في مقدوره أن يقول شيئا . . وسالت دموعه لا على وجهه فحسب . بل على مئات الوجوه التي كانت تتطلع إليه في لهفة وجنون ! !

وفجأة تجمدت تلك الدموع في العيون ولم تعد تنهمر . . وإنما استحالت إلى حقد مدمر عنيف . . وتحد قوي صارخ . . !

ألم تذهب يوما إلى حديقة الحيوان وترى « نمرا » ألح عليه أحد الزوار بما يستثير الغضب . . ؟ لقد استحال مئات الطلبة إلى نمور مقوتة تشع عيونهم بما يشبه الشرر . . وتنفل صدورهم بما يشبه النار . . وكان ذلك الشرر المدمر أو تلك النار المحرقة . هي النبات الطيب الذي تفتحت عنه أرض مصر حين اروت من ذلك الدم الذي أريق بالأمس . . ذلك الدم المقدس . . !!

محمد أبو العاطي أبو النجا

ظهر المجلد الثالث

من كتاب

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

والقصص

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته أربعمائة صفحة ونيفاً

وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

جداول مواعيد القطارات فصل الشتاء

ليكن في علم الجمهور أنه قد أدخل على مواعيد سير بعض القطارات الاكسبريس والركاب ابتداء من أول نوفمبر سنة ١٩٥١ تعديلات هامة وفقا للجداول المعلنة بالمحطات وجداول الجيب المعدة للبيع بها .

علما أنه ستستبدل القطارات الاكسبريس رقم ٩٩٠ و ٩٩١ و ٩٩٢ و ٩٩٣ بخط مصر — الاسكندرية بقطارات ديزل درجه أولى (مكيفة الهواء) وثانية ممتازة وفق مواعيدها المدرجة بالجداول

المدير العام

سيد عبد الواحد

مطبعة الرسالة